ديوان أبي فراس الحمداني

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

لم يجمع ابو فراس أشعاره بنفسه ، وإنما كان يدفعها إلى أحد أساتذته المعجبين به ، أبي عبد الله الحسين بن خالويه ، وهو من أشهر علماء اللغة الحمداني ، وامله بهذا ، كان يريد أن يلقيه بين يدى أستاذ يذيعه فى الناس ، ويشرح لهم ما غمض عليهم منه ، ويبين ما فيه من إشارات تاريخية يدركها ، بحكم اتصاله بأمراء الأسرة ؛ ولهذا أستبعد صحة تلك الرواية التى تدعى على أبي فراس أنه حظر على أستاذه نشر شعره ، فلو أنه كان يقصد حقاً حظر هذا النشر فلكفى نفسه مئونة إلقائه إلى أستاذه ، بل مئونة إنشائه وكيف ومن هذا الشعر ما أرسل به إلى أقربائه وأصدقائه ، ومنه ما قصد به إلى تسجيل مفاخره ومفاخر أسرته ، ولا معنى لهذا التسجيل إذا لم يشع بين الناس ، ويجر على الألسنة ، ويحفظ فى الصدور ، وتحمل به الكتب ، وكان أبو فراس يعد الشعر ديوان العرب ، وعنوان الأدب ، لا شيئاً يحط من قدره ، ويرغب فى إخفائه ، بل لقد كانت قدرته البيانية من أسباب فخره ، وإذا كان قد نفى عن نفسه أنه شاعر حين قال :

نطقت بمدحى ، وامتدحت عشيرتى
وما أنا مداح ، ولا أنا شاعر

فإنما كان يرمى إلى أنه ليس من هؤلاء الشعراء الذين يتسببون إلى ممدوحيهم ما ليس فيهم رغبة فى العطلات والعطايا .

وإن فى مقدمة ابن خالويه ما يدل على أنه كان يلقيه إليه ، ثقة منه بحفظه إياه ، إذ يقول : وما زال ، رحمه الله ، إيجاباً لحق الأدب ، ورعاية للصحبة ، وعلماً بأهل المحافظة ، يلقى إلى دون الناس شعره ... فجمعت منه ما ألقاه إلي ، وشرحته بما أرجو أن يقربه الله ، عز وجل بالصواب ، والرشاد ، بمنه وطوله ، وقوته وحوله ؛ ولا ينبغى أن يفهم من كلمة ابن خالويه أنه شرح الديوان ببيان معانى أبياته ، وإنما ذكر أحياناً الظروف التى قيلت فيها القصائد نفسها ، كما شرح الحوادث التاريخية ، لقصيدة الفخر الرائية ، من غير تعرض لشرح لغوى ، أو تفسير غامض .

لست أدرى الترتيب الذى اختاره ابن خالويه لديوان أبي فراس وربما كان يضم المحدث الذى كان الشاعر يلقى به إليه ، ويضيفه إلى القديم الذى عنده ، فيكون بذلك أقرب إلى الترتيب التاريخى .

أما النسخ الباقية لنا من الديوان فتبرمتفقة فى ترتيب قصائده ، وقد شوه نساخها شعر أبي فراس ، فحذف بعضهم بعضه ، حتى لم تبق نسخة واحدة تجمع كل شعره ، فضلا عن المسخ الذى أصيب به كثير من ألفاظه حتى صار من العسير فهم النص فى كثير من الأحيان ، والوصول إلى حقيقة معانى الشاعر ، ولم تخل من هذه العيوب النسخ المطبوعة للديوان ببيروت سنة ١٨٧٣ وسنة ١٩٠٠ و سنة ١٩١٠ م .

ومن العجيب أن شارح ديوان أبي فراس ، وهو عبد اللطيف البهائى ، أحد فقهاء القرن الحادى عشر ، وأحد قضاة بغداد ، كما حقق ذلك ناشر الديوان الحديث الدكتور سامى الدهان — عثر على إحدى هذه النسخ المشوهة فشرحها ، وجره الخطأ إلى شرح خاطىء ، وقد أشار ناشر الديوان إلى أمثلة كثيرة من هذا الخطأ ، ومنه أن أبا فراس قال ببيتين ، لما مضى سيف الدولة يطالب قتلة عامله على قنسرين بدمه ، ثم كف عنهم بتوسط أبي فراس ، ولكنهم قصروا فى شكره ، وهما :

وما نعمة مكفورة قد صنعتها إلى غير ذى شكر بما نبتنى أخرى
سأبقى جميلا ما حييت ، فإننى إذا لم أفد شكراً أفدت به أجرا

موقع للشارح البيت الأول محرفا إلى :

وما نعمة مكفورة قد صنعتها إلى غير ذى شكر بما نبتغى أخرى

فلم يحقق النص ، بل شرح البيتين بقوله : « يقول مخاطباً لسيف الدولة : إن النعمة التى صنعتها بعفوك عن قاتلى المصباح الذى وليته قنسرين ، لكونها مكفورة ، لا تقتضى أن تعاد عليهم مرة أخرى ، لكن عادتى أن أفعل الجميل مدة حياتى ، فإن لم

أستفد منه الشكر استفدت منه الأجر » ؛ وهو بهذا الشرح لا يلحظ أن الشاعر يجعل الأمير حينئذ فى منزلة أقل من منزلته ، إذ يخبره بأن نعمته ما دامت مكفورة لا يجدر به أن يسدى للشاكرين يداً أخرى ، بينما أبو فراس من عادته قبل الجميل دائماً شكر أم كفر .

كما شرح قول أبى فراس :

وفارق عمرو بن الزبير خليله وخلى أمير المؤمنين عقيل

فقال : « يعنى هذا شأن الدنيا وشأن أهلها من الغدر وعدم البقاء على الصحبة ، كما فى قصة عمرو بن الزبير مع خليله وتخلية أمير المؤمنين يزيد الدولة قبيلة عقيل الذين قادهم لدى بن جعفر كما ذكر سالفاً » . وهذا شرح يدل على جهل بالتاريخ ، أما أبو فراس فيشير إلى عداوة عمرو بن الزبير لأخيه عبد الله وقيامه ضده ، وإلى عقيل بن أبى طالب الذى فارق على بن أبى طالب أخاه فى خلافته ، ومضى إلى معاوية .

وعن شرح هذا الفقيه أخذ نخلة قلفاط فى حل بعض أبيات الديوان عند ما طبع ببيروت وكثيراً ما يوجز ويختصر .

لم يمر الهانى على ديوان أبى فراس كاملا ، بل ينقصه الكثير من قصائده ، ولم يقف فى شرحه عند الإشارات التاريخية التى فى الديوان يوضح المراد بها ، ولم ينقل ما أورده ابن خالويه فى توضيحها بل كان التفسير اللغوى وجهته ، فيذكر النص ، ويشرح ما فيه من ألفاظ لغوية ، ذاكراً بعض ما لكلمه من مشتقات وجموع ، ومبيناً ما فى الكلام من أنواع البيان والبديع ، ومتبعاً ذلك بذكر المعنى الإجمالى للنص ، وكل ذلك فى إيجاز ، دفعه إليه إسراعه فى هذا الشرح الذى أتمه فى عشرين يوماً ، وكثيراً ما كان يعتى نفسه من عناء الشرح ، فيقول عن البيت من الشعر : « ظاهر غنى عن الشرح » وربما كان خفياً غامضاً .

ظل ديوان أبى فراس على ما وصفنا من النقص والتشويه حتى هيء له أحد العلماء الناشرين ، وهو الدكتور سامى الدهان ، فأخرجه متبعا أمثل طرق الإخراج ، ووقف عليه حقبة من عمره ، حتى استطاع أن يخرج أصح وأكمل ما استطاع أن يظهره لديوان أبى فراس ، وإن من يأتى مثل ما عاناه الناشر ليقدر ما بذله من جهد معتن فى التنقيب والتحقيق والاختيار ، ولا يسعنا إلا أن نشكر له هذا الجهد الموفق .

وبرغم التحقيق الدقيق الذى بذله الناشر الكريم لم يدع أنه وصل إلى المثل الأعلى الذى يبغيه ، وطلب من النقاد أن يوافوه بآرائهم فى عمله الشمر إذ قال : « غير أنى لم أظفر بمن يقرؤه من الدفة إلى الدفة يسجل نقده ويسجل يده .. وأملى أن يحظى بالناقد الحكيم والقارىء الكريم فيرد إلى صوابه ، ويبصرنى بزلله » ؛ وعلى هذا الأساس أبدى بعض ملحوظات عنت لى بعد قراءة الديوان كله قراءة دارسة ناقدة ، من غير أن تقلل هذه الملحوظات اليسيرة من قيمة هذا الجهد المشكور ، والعمل الصالح .

وأول ما ألحظه على الديوان ترتيبه بعد اتبع نهجاً صناعيا لا فنيا فى هذا الترتيب ، إذ قسمه على نظام حروف القوافى ، وإنى أوثر على ذلك النظام نظامين آخرين ، هما الترتيب التاريخى ، والترتيب الموضوعى ؛ ذلك أن الترتيب على حسب القوافى ليس له قيمة فنية ما ، وليس له من فائدة سوى سهولة العثور على القصيدة فى الديوان ، ويغنى عن ذلك فهرس يوضع فى آخر الكتاب لتسهيل المراجعة ، أما الترتيب التاريخى فيساعد على تتبع التدرج الفنى للشاعر ، ويعين على معرفة أثر الزمن فى نفس الشاعر ونظراته إلى الحياة ، وربما كان الترتيب الذى سار عليه ابن خالويه أقرب إلى الترتيب التاريخى كما ذكرنا ، فإذا عز علينا الترتيب التاريخى ، فالأفضل أن ترتب الديوان على حسب موضوعاته ، فنجمع قصائد كل باب متجاورة ، فذلك خليق بأن يبرز لنا خصائص الشاعر فى كل فن من فنونه فى سهولة ويسر ، فإذا جمعنا بين الترتيب الموضوعى والتاريخى معا فذلك هو المثل الأعلى للجمع والترتيب ؛ أما وقد سار الناشر على هذا الترتيب الصناعى فإنى كنت أرجو أن يؤرخ القصائد إذا استطاع الوصول إلى تاريخها .

وكنت أوثر أن لو أضاف الناشر إلى جهده الضخم شرح غريب الديوان فى ذيل الصفحات حتى يكون بذلك قد جلى بين القارىء والشعر لا يحول بينهما تحريف فى عبارة ، ولا غرابة فى لفظ ، ولم يكن أبو فراس مغرماً بالغريب أو مستكثراً منه ، فكان من السهل على الناشر شرح هذا القليل حتى يصبح كتابه مستغنياً بنفسه عما سواه ، كما عهدنا له جهده فى شرح الإشارات

الجغرافية الواردة فى الديوان .

وقد تحرى الناشر أقرب الروايات إلى الصحة من بين الروايات المختلفة فى النسخ ، ولكنى أرى أن قد اختار ، فى أحيان قليلة ، رواية أراها مرجوحة ، كما آثر أن يروى هذا البيت :

وهل لقضاء الله فى الخلق غالب وهل لقضاء الله فى الخلق هارب

وإنى أوثر رواية الشطر الثانى بمن بدل اللام فيكون :

وهل من قضاء الله فى الخلق هارب .

وآثر أن يروى هذا البيت ، وهو فى خطاب سيف الدولة :

دعوناك ، والهجران دونك ، دعوة
أتاك بها يقظانَ ، فكرُك ، لا البرد

وأوثر رواية العاملى : البحران بدل الهجران الذى لا معنى له هنا ، ولعله يقصد بالبحرين نهرين يفصلان بينه وبينهم .

وروى البيت :

ياطلعة الشمس لما صادفت حللا من السحاب على أرض من الزهر

وأوثر خللا بالخاء ، أى منفرجاً بين السحب ، لأن طلعة الشمس إذا لبست حلل السحب لا ترى ، ولا تفرح بها أرض الزهر .

وروى البيت :

أخو النعمات فى جِدٍّ وهزل أخو النفقات من سعة وضيق

وأفضّل رواية : فى سعة وضيق ، أو فى جد وضيق ، إذ أنه ينفق من سعة ولكن لا يقال ينفق من ضيق . وروى البيت :

ولكنّ دهراً دافعتنى خطوبه كما دفع الدين الغريم المماطل

وأفضل : كما دافع الدين الغريم المماطل ، لأن الغريم المماطل يدافع الدين ولا يدفعه ، وروى البيت :

خليلىّ شدّا لى على ناقتيكما إذا مابدا شيب من العجز ناصل

ولا معنى للعجز هنا ، وأختار رواية الفجر . وروى البيت :

وإنّ مقيا منهج العجز خائب وإنّ مريحاً خائب الجهد نائل

وأفضل على ذلك رواية : وإن مقيا منجح العجز ، خائب . فإن أبافراس يوازن بين رجلين أحدهما مقيم لايطلب ، عاجز عن الجهاد ، غير أنه قد نجح ، وثانيهما طالب مجدّ ولكن جهده قد خاب ، فأبو فراس لا يمدح نجاح الأول نجاحاً ، ولا فشل الثانى خيبة وإخفاقاً ، ورجح رواية البيت :

لقد ظننتك بين الجحفلين ترى أن السلامة من وقع القنا تعم

والأفضل رواية : لقد رأيتك . لما فيها من اليقين الذى يناسبه التوكيد . وآثر رواية البيت :

ومن لق الذى لاقيت هانت عليه موارد الموت الزؤام
ثناء طيب لا خلف فيه وآثار كآثار الغمام

وأنا أوثر الرواية الأخرى وهى : ومن أبق الذى أبقيت هانت لأنه فسر ما أبقاه فى البيت الثانى ، وبدون ذلك يبقى هذا البيت منقطعاً عن صاحبه . وروى البيت :

فيظلع قلبى ساعة ثم ينثنى وأقسو عليه تارة ويلين

والأفضل عندى رواية : وأقسو عليه تارة وأين ؟ حتى يكون المتحدث عنه واحد فى الشطر الثانى ، كما هو واحد فى الشطر الأول

هذا ، ويخيل إلى أن أبياتاً ثلاثة قد تسللت إلى القصيدة رقم ٣٣٢ ص ٤٠٦ من غير أن تكون هذه الأبيات فيها ، أوأن موضعها فى القصيدة ليس هو الموضع الذى اختير ، وذلك حيث يقول أبو فراس :

مالى جزعت من الخطوب بعدما أخذ المهيمن بعض ما أعطانى
ولقد مررت كما تخممت عشائرى زمناً ، وهأنى الذى عزانى
وأمرت فى جرى خيولى غازياً وحبست فيها أشغلت نيرانى

فأنت تراه هنا يتحدث عن حاضره المؤلم ، متسلياً بماضيه ، ولكن ينتقل من ذلك إلى مدح سيف الدولة فيقول :

يرى بنا شطر البلاد ومشيع صدق التكرمة فائض الإحسان
بلد لعمرك لم أزل زواره مع سيد قوم أغر همجان
إنا لنلقى الخطب فيك وغيره بموفق عند الخطوب سمان

ثم يعود مرة أخرى إلى الحديث عن حاله اليوم والأمس فيقول:

أصبحت ممتنع الجراك ، وربما أصبحت ممتنعاً على الأقران

مما أرجح معه أن هذه الأبيات قد دست بين الغرض الواحد دساً ، فضلا عن حديثه عن بلد غير مذكور فى القصيدة ، وعن غموض المعنى وضعف الأسلوب فى قوله : إنا لنلقى الخطب فيك وغيره .

وفى الديوان عنوان خاطئ هو : وقال فى ابنته زوجة أبى المشائر (ص ٣٧٥) ، فأبو المشائر لم يتزوج ابنة أبى فراس ولكن أخته ، والصواب أن هذه القطعة قالها أبو فراس فى زوجته وهى ابنة أبى المشائر ، والشعر نفسه يدل على ذلك يقول :